٤ — بناء الوطن المصرى السودانى فى القرن التاسع عشر

عهد محمد على واسماعيل

وصف الدكتور عباس عمار فى الفصل السابق كيف أصبح أهل مصر والأقاليم السودانية أمة عربية اسلامية ونتولى فى الفصل الحاضر الكلام عن تاريخ بناء وطن واحد لتلك الأمة العربية الاسلامية فى القرن التاسع عشر : عصر تشييد الأوطان الموحدة فى الشرق والغرب . فقد شهد ذلك القرن تأليف الوحدة الألمانية والايطالية والحركات القومية الصقلبية نحو لم الشتات وجمع الأوصال كما شهد لونا آخر من التآلف والتآزر فى الأمة الواحدة حققه زوال امتيازات الطبقات والجماعات على أثر الحركات الدستورية والانقلابات الاجتماعية فى الشرق وفى الغرب أيضا .

وقد قام بناء الوطن المصرى السودانى الموحد على أسس مادية ومعنوية واكتسب البناء مادة تماسكه وبقاءه من عناصر قديمة وأخرى جديدة ، أصولها متغلغلة فى ماء النيل وفى تربته نامية فى هواء الوادى وتحت شمسه ، قديمة قدم تاج فرعون ، حية بحياة العروبة والاسلام . وهى بعد جديدة ، فما هذا الوطن إلا وحدة من وحدات هذا العالم الحاضر يشارك فى حياته ويبادل غيره شتى المنافع ويقوم بما ينبغى له أن يقوم به نحو رقى البشرية واستتباب الأمن والسلام والطأنينة وكفالة الحقوق وقد بدأ البناء عند ما تولى محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر حركة تحرير قوى مصر الكامنة وتوجيه جهودها ومواردها نحو إنشاء مركز قوة جديدة داخل إطار العالم العثمانى . فرسم لها أرض وادى النيل ، ممتدة الى البحرين الأبيض والأحمر. هذه هى أرض الوطن الأولية . أما ما امتد اليه حكمه ونفوذه فى الولايات العثمانية الاسيوية فكان أمرا اقتضته ظروف الكفاح لأجل بناء الوطن الجديد .

وفى سبيل اقامة البناء كان لا بد له من تقويض العصبيات الخاصة والرياسات المنفصلة والإمارات الصغيرة سواء كان ذلك فى مصر أو فى السودان ، فزال سلطان الأمراء المماليك فى مصر كما زال سلطان الفونج وما شابهه فى السودان ، وحل محل هذا وأمثاله سلطة عامة واحدة فى الوطن الموحد .

وقد قضى محمد على زهاء خمسين عاما مواصلا العمل آناء الليل وأطراف النهار فى سبيل عمران مصر والسودان وتقدمها وانا نود لو اتسع أفق المؤرخ (من أى أمة كان) عند كتابته تاريخ الوصل ما بين مصر والسودان الذى تم فى أيام محمد على اتساع آفاق وادى النيل ، نود ألا ينحصر الأمر فى تتبع مشكلات الوحدة وصعوباتها ، نود ألا ننسى أن إدارة محمد على لشؤون مصر والسودان لم تملك سككا حديدية ولا سفنا بخارية ولا تلغرافا وتليفونا ولم تعرف طب المناطق الحارة ولم يكن تحت تصرفها الاخصائيون فى الدراسات الاجتماعية والعلمية النظرية والتطبيقية

والمهندسون والمعلمون وغيرهم من الفنيين. كما نود أن نذكر أنه ان كانت حاجة لموازنات ومقارنات بين أنظمة الادارة فى عهد محمد على وعهدنا الحاضر ألا يقتضى الانصاف أن تكون الموازنة بين أساليب الادارة سنة ١٨٣٠ فى مختلف أنحاء العالم إذ ذاك ومقارنة حالة فلاحى مصر والسودان وصناع مصر والسودان فى ذلك الوقت بحالة أمثالهم فى الوقت نفسه فى سهول الروسيا والمجر وألمانيا، بل وفى غرب أوربا أيضا وفى مدن انجلترا وبين تجارة الرق وأحوال الرقيق فى العالم الاسلامى وتجارة الرق وأحوال الرقيق فى الوقت نفسه فى الجمهوريات والمستعمرات الأمريكية والسكسونية واللاتينية وفى المستعمرات الأوربية فى إفريقية وفى آسيا وفى الأقيانوسية فلايرتق نظرنا إذن الى الجوهر الباقى والى صميم الأشياء .

وأول تلك الأشياء أن محمد على الحاكم المسلم بعث جيشا من المسلمين للفتح فى بلاد إسلامية تجاورها بلاد الزنوج الوثنيين وبلاد الحبش ومنهم مسلمون ومنهم نصارى ويهود. ومثل هذا الفتح ليس امتلاكا ولا استعمارا فالمسلمون لا يملكون رقاب المسلمين بل هو ضم ما حتمت الطبيعة أن يوصل وتأليف روابط الجنس والدين والمنافع فى رابطة الوحدة القومية، ولذا فقد خلق الحكم المحمدى العلوى من إمارات وقبائل متفرقة وطنا اسلاميا وهيأ لهذا الوطن مستقبلا ووجودا بين مناطق الأحباش والقبائل البدائية ومناطق الزحف الأوربى الذى كان قد أخذ فى الاقتراب نحو وادى النيل قادما من الأطراف الساحلية ، ثم ربط هذا الوطن الجديد بالوطن الأكبر وبحياة الانسانية الحاضرة .

وبعد عهد محمد على أدرك الخديو اسماعيل خطط جده ومراميها ادراكا تاما فواصل إتمام البناء وامتداد الوطن نحو حدوده الطبيعية فى مناطق خط الاستواء كما عمل على صيانته وتيسير ادارته وتقدم مصالحه الاقتصادية بمد نفوذه الى المناطق الواقعة ما بين الوادى والبحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندى ، وكان لهذه البحار الشأن العظيم فى حياة الوطن وتيسير مواصلاته وسلامة أراضيه وكانت اذ ذاك تتجه نحوها المساعى الاستعمارية الأوروبية ، وقد سبقها اسماعيل فاكتسب لمصر والسودان حقوق السبق ونظم وعمل وضحى بالمال والرجال . وتجد فى موضع آخر من هذه الرسالة تفصيلا لهذا كله . وان تلك المآثر قد تتعرض للنكران وللغمط أو للنسيان والاهمال أو للنقص والتشويه ولكنها باقية، اذ هى مستمدة من طبيعة الأشياء نفسها تستند الى حقائق أزلية وكفى محمد على واسماعيل فخرا أبديا أنهما تزعما حركة بناء الوطن الموحد وتوابعه وملحقاته وان تلك الحركة سبقت محاول التقطيع والتقسيم التى عمت سائر الأرجاء الأخرى فثبت البناء عند ما بلغته موجة الزحف الاستعمارى الأوروبى قرب نهاية حكم اسماعيل وتحولت عاصفة التدخل الأجنبى فى شؤون الوادى وأهله سحابة صيف عن قريب تقشع .